التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية

إيريك جوفروا

جانفي 2015

FONDATION POUR L'INNOVATION POLITIQUE
fondapol.org

FONDATION POUR
L'INNOVATION
POLITIQUE
fondapol.org

www.fondapol.org

إيريك جوفروا

التعددية الدينية في الإسلام،
أو الوعي بالغيرية

ترجمة

عبد الحق الزموري

جانفي 2015

مؤسسة التجديد السياسي *Fondapol* هي مركز
بحث وتفكير (ثنك تانك) ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا

غريغوري شرتوك: نائب رئيس

دومينيك رايني: مديرا عاما

لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالقيم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة ستراز بورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح

التعددية الدينية في الإسلام أو الوعي بالغيرية

إريك جوفروا
أستاذ الفكر الإسلامي في جامعة سترازبورغ،
كاتب، متخصص في التصوف

يدفعنا سلوك بعض الأفراد أو الجماعات المدّعين الانتماء للإسلام – ونقصد هنا على سبيل المثال المسمّاة الدولة الإسلامية في العراق والشام – إلى التساؤل عن موقف هذا الدين من غير المسلمين، ومن التعددية الدينية بشكل عام.

الواقع المعاصر يُبرِزُ، ضرورةً، تناقضا حادًا بين المبادئ المعلنة في القرآن، كما تمَثَّلَها الرسول (ص) وطبّقتها المجتمعات المسلمة بشكل واسع، من جهة، ونفيها ومخالفتها من الدجّالين المعاصرين باسم القيم الأساسية للإسلام، من جهة أخرى. وحتى نتبيّن المشهد لا بد إذا من الانطلاق من تلك المبادئ المقدسة نفسها، التي لم تبق على مرّ القرون مجرّد رغبات طيبة، بل تبنّاها – بشكل عام – المسلمون إلى حدود سنوات قليلة ماضية.

تعددية يؤكدها النص المقدس:
كونية الإسلام

منذ البدء كان الإسلام منخرطا في العالمية. يقول تعالى ﴿فأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[1]. يعني ذلك أن كل ما يوجد في الكون يحمل معنًى، وهو من الإشارات الإلهية، كما تذهب لذلك الآية 148 من سورة البقرة:﴿ولِكُلٍ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها فاستبقوا الخيرات﴾. وبالتالي فإن المسلم لا يستطيع أن يُخرج أي دين أو أي ثقافة أو أي وجه من الحضرة الإلهية. ذاك كان تمثُّلُ الأجيال الأولى للقرآن، أجيال تشرّبتْ بِنَهَمٍ كبير وبسرعةٍ عجيبة قيم حضارات اليونان القديم، وبيزنطة، وبلاد فارس، وصولا إلى الهند. إن مصطلح "إسلام"، الذي يعني في جوهره "تسليم يقيني لله"،[2] أو أيضا "الانخراط الواعي والعملي في السلام (الله)"، يرسمُ موقفًا دينيًا كونيًا. هو ليس إسمًا مرادفا، متعلقا بشخص، كما هو الحال في البوذية أو المسيحية (بوذا؛

---

[1]) سورة البقرة؛ آية 115

[2]) Mohammed Talbi et Gwendoline Jarczyk, *Penseur libre en islam*, Albin Michel, 2002, p. 158.

المسيح)، بل "اسمًا مشتركًا" بين العباد، كما يقول العالم المصري محمد الغزالي (تـ. 1996).[3]

وبهذا المعنى فإن العلماء الأكثر شُهرةً يؤكّدون إن الإسلام ليس دينا جديدا[4] – أو لم يكن عليه أن يكون كذلك – بل هو "دعوة للعالمين"، حتى "تذْكر" البشرية الله. إن المشروع الميتافيزيقي للإسلام يحدده بإعادة إحياء الوحي الأول الذي أرسله لآدم. وهذا هو الميراث الأصلي المفارق للدوغما (العقائد) – أو ما قبل الدوغما، وعموده الفقري الوحيد الاعتراف بوحدانية الله، الذي عَنَتْهُ الآية القرآنية: ﴿ فأقِمْ وَجْهَكَ للدين حنيفًا فِطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدينُ القيّمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.[5]

تَصدُرُ النظرية الإسلامية للتعددية عن مبدأ منطقي: بما أن الله في الإسلام واحدٌ أوحد، يستحيل كل ما عداه، أي خلقه، إلى التعدد. غير

---

[3]) محمد الغزالي؛ التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام. دمشق، 2005؛ ص 76

[4]) أنظر على سبيل المثال صبحي الصالح؛ ردّ الإسلام على تحدّيات عصرنا (بالفرنسة). بيروت، أرابيل، 1979؛ ص 102؛ أيضا محمد الغزالي؛ نفسه. ص 77

[5]) سورة الروم؛ آية 30

أن الرحمة الإلهية التي ﴿وسعت كل شي﴾[6] لم تترك أي قطيعة بين هذين المستويين. يمكن للكون أن ينتشر متعددا لأنه قائم على أساس متين هو التوحيد. ففي السورة الأولى من سُوَر القرآن يقدم الله نفسه كونه ﴿رب العالمين﴾.[7] وأوجه الخَلْق متعددة لأنها تصدر عنه تعالى وتذوب فيه. كثيرة هي الآيات القرآنية التي تُعبّر عن تلك العودة– الذوبان في الله، التي تقوم بها أنفس البشر، ولكن أيضا أسباب تفرّقهم في الحياة الدنيا. وإذا كانت الذات الإلهية في توحّدها عصيّة على الإدراك، فإن الله يجعل من نفسه متعددا في تجلّيه، ممكّنا خلْقه من التعرف عليه من خلال أسمائه وصفاته تعالى. هو يجعل من نفسه في مُتناول التعقّل البشري، ويخلقُ حالة من التضامن الراسخ بين المقامات الإلهية والبشرية. وبالنتيجة فإن الاعتراف بالوحدانية المطلوب من المسلم الورع لا بد أن يكون أثره المباشر في العقل تضامنٌ وترابط بين كل أحكام الخَلْق. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى: "الخلْقُ كُلُّهم عيال الله".

---

[6]) سورة الأعراف؛ آية 156

[7]) سورة الفاتحة؛ آية 2

تعدد الخلق في الإسلام هي التعبيرة الإيجابية الجوهرية عن حرية الكائنات. وقد اقترح القرآن بذلك تصورا معاصرا جدا للعيش المشترك القائم على احترام الاختلاف. وهو يبدأ بالإعلان عن **تعددية كونية**، فيها ترتبط مختلف السلطات بجماعة المؤمنين: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.[8] ثم تتمظهر التعددية، على المستوى البشري، في اختلاف الأعراق والثقافات: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾،[9] ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛[10] وقد يتمظهر في اللغة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾؛ [11]ويمكن طبعا أن يتمظهر في الدين، وهو البُعد الذي يهمنا

---

[8]) سورة الإسراء؛ آية 44

[9]) سورة هود؛ آية 118

[10]) سورة الحجرات؛ آية 13

[11]) سورة الروم؛ آية 22

هنا بشكل خاص.

الاعتراف بالغيرية الدينية

قد يفاجئ الأمر بعضهم، ولكن القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي يُقِرُّ، في منطوقه حتى، بكونية الوحي وبالتنوع بين الأديان. وأشار عديد الملاحظين إلى أننا لا نجد لذلك مثيلا في اليهودية أو في المسيحية. لا بد من التذكير هنا أننا نتحدث عن عصر كانت فيه الصرامة الدينية هي المهيمنة، وحيث كان كل دين أو حضارة منكفئا على ذاته.

أن تكون مسلما يعني أن تعترف بصحة كل الأديان الموحاة قبل الإسلام. وقد كان الإسلام صريحا حول ذلك الميراث: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[12] ومحمد (ص) هو "خاتم" النبيين، أي آخرهم، وعدد هؤلاء يربو بحسبه إلى 124

[12]) سورة البقرة؛ آية 136

ألف. في حين أن القرآن لا يتحدث إلا عن 27 نبيا، مؤكدا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾.[13] لا بد إذا من البحث عن البقية في مستوى أوسع من تاريخ الإنسانية. ويرى علماء الإسلام أن لا إشكال في اعتبار بوذا وزاردُشت وأخناتون أنبياء. وقالوا إن القرآن أشار إلى بوذا في موضعين،[14] بل ذهب بعضهم إلى أن "الآلهة الهندية" (*avatars*) أو تجسد الآلهة عند البوذية مقابلا لأنبياء الإسلام. تماما كما رأى العلماء الهنود في "الفيدا" – وهي النصوص المقدسة لدى الهندوس – إلهاما من الله، واعتبروا الهندوس "أهل كتاب"، أي شعوبا عرفت الوحي. وفي القديم كان "أهل الكتاب" هم كُلٌ من اليهود والنصارى والصابئة والزرادشت. كان هؤلاء يتمتعون بوضعية مميزة، أي – افتراضا – وضعية إيجابية مقارنة بالمشركين والوثنيين، كما سنرى لاحقا.

أكّد الرسول (ص) كونية الوحي، في قوله: "نَحْنُ مَعَاشِر الْأَنْبِيَاء أَوْلَاد عَلَّات دِيننَا وَاحِد، وشرائعنا

---

13) سورة يونس؛ آية 47

14) سورة الأنبياء؛ آية 85. وكذلك سورة التين

مختلفة". وهو ما جعله يرفع من احترام الموحّدين الآخرين: "مَن آذى ذِمّياً فقد آذاني ومن آذاني كنت خصمه يوم القيامة"، كما نُقِلَ عنه (صلى الله عليه وسلم) أيضا: " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة". وها هو الرسول نفسه يقف لنعش يهودي، فينبّهه أصحابه إلى أن المتوفّى ليس من المسلمين، فيجيبهم "أليست نفساً ؟"، مؤكدًا بذلك المساواة الأصلية لكل البشر أمام الله.

ولكن انفتاح الوحي على الأديان قد يفاجئ أحيانا النبي نفسه. فعندما سأله الصحابي سلمان الفارسي عن مصير أهل الورع من المزدكية الذين خالطهم في بلاد فارس ولم يكونوا قد عرفوا الإسلام بعد، أجابه النبي محمد (ص) أن مصيرهم نار جهنم. فأوحى الله إليه الآية 62 من سورة البقرة التي تفتح الرحمة والمغفرة للمؤمنين بديانات أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وتورَدُ نفس أسباب النزول في تفسير

الآية 69 من سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وتعطي الآيات 111 و 112 من سورة البقرة آفاقا أرحب للخلاص: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وعبارة "أسلمَ وجهه لله" لا تُعيّنُ مذهبا مخصوصا، بل تصف حالا دينيا كونيا.

وقد أربكت تلك التعددية الدينية التي جاءت في بعض الآيات عددا من المفسرين المسلمين، ولكن لا أحد ينفي البرهان الساطع. ومنها الآية 48 من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. ونجد في سياق الآيات السابقة (44 و 46) وهي تصف التوراة والإنجيل بـ"الهُدى" وبـ"النور"، أن المفسرين الأكثر تقييدا لم يستطيعوا إلا الاستنتاج بأن تعدد الطرق تؤدي إلى الحق. بل إن بعض الكتاب المسلمين المعاصرين رأَوْا في ذلك إشارة كون الفرد يمكن أن يختار طريقه إلى الله الذي يعتقد أنه الأصلح.[15]

ماذا إذا عن الآيتين المفتاح اللتين يعتمد عليهما المسلمون الحصريون، أولئك الذين يريدون إقصاء المؤمنين غير المسلمين من حظيرة الخلاص، دون اعتبارٍ لأسباب نزول تلك الآيات وسياقاتها؟

﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: 19]

يعتبر هؤلاء المسلمين أن الإسلام، وهو آخر دين موحًى به للبشرية، قد نسخ ما جاء قبله من ديانات، ورفع عنها إمكانية النجاة، كليًا أو جزئيا. ولكننا إذا نظرنا في أدبيات تفسير الآية، فسنلاحظ أن عددا قليلا من الكتّاب اختصروا

15) Farid Esack, *Qur'ân, Liberation and Pluralism*, (القرآن، تحرر وتعددية) Oneworld, Oxford, 1997, p. 170.

مصطلح "دين" في الوحي الذي نزل على محمد (ص). أما بالنسبة لغالبية المفسرين، فإن "الدين" يعني هنا الانخراط في مبدأ التوحيد الذي ذكّر به كل الأنبياء.[16] وقد لخص المفسر الحديث العراقي محمود الألوسي (تـ 1853) ما سبقه من آراء، التي اعتبرت "الإسلام" المذكور هنا مصطلحا يجمع المؤمنين وغير المسلمين.[17] الرهان إذا هو حول مبدأ التسليم الواعي لله وللسنن الكونية، لا حول الإسلام التاريخي الذي تمظهر في التقلبات المتأصلة في تجربة الإنسان على الأرض. وقد أكثر القول في ذلك عدد من مفسري القرآن المسلمين المعاصرين مثل فضل الرحمان، وحسن حنفي، ومحمد الطالبي، وفريد إسحاق.

أ. ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: 85]

---

16) أنظر مثلا الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت، دت، ج 3، ص 212. محي الدين بن عربي؛ فصوص الحكم. بيروت، دت، ج1، ص 94-95. الكاشاني؛ تفسير القرآن الكريم (منسوب لابن عربي). بيروت، ج1، ص 174. أحمد بن عجيبة؛ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. بيروت، 2002، ج1، ص 300

17) محمود الألوسي؛ روح المعاني. ج2، ص 107

يبدو التأكيد على خصوصية الرحمة الإسلامية هنا أكثر إلحاحا. وتورد "أسباب نزول" أن الوحي نزل بهذه الآية عندما ارتدّ اثنا عشر رجلا عن الاسلام، مغادرين المدينة إلى مكة. ولكننا نجد أن واحدا من أوائل كبار المفسرين، الطبري الفارسي الأصل (تـ 923) أشار إلى أن المؤمنين من غير المسلمين الحاضرين في المدينة، وخاصة اليهود، اعترفوا بهذا "الإسلام" الذي يعدهم هم أيضا بالجنة (الخلاص) إذا ما اتبعوا تعاليم دينهم.[18] بيد أن عددا من الكتّاب اللاحقين رفضوا قراءة طائفية للآية. وهم يشيرون إلى أن الآية لا يمكن أن تُقرَأَ خارج سياق تنزيلها، أي دون الرجوع إلى الآيات 83 و 84. تذكر الآية 83 "دين الله" الذي يُسلِمُ له من في السماء ومن في الأرض، وهذا الدين الأساسي هو الذي عَنَتْهُ الآية 85. وتؤكد الآية الوسيطة (84) صحة تلك الرؤية، لأنها، بعد أن عددت مسيرة الأنبياء في التاريخ، ذكّرت أنه لا تفضيل بينهم.

تحمل الآية 85 عند المفسرين إذا معنى الشمول، معنى كونيا: الخاسرون في الآخرة ليسوا أولئك

[18]) الطبري؛ جامع البيان. نفسه، ج3، ص 339

الذين يعتنقون ديانة أخرى غير الإسلام، بل الذين ينكرون أصولهم الروحية ووضعية العبودية التي يجب أن يكونوا عليها في هذه الأرض.[19] يمكننا إذا أن نتساءل هل إن الهدف من ذكر القرآن لنوح وإبراهيم ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء "المسلمين" هو الرغبة في استردادهم، أم لأن مصطلح إسلام يشير إلى الدين الطبيعي، الأصلي، قبل تعيين الدين الذي أتى به محمد (ص) ؟

مسألة الحرية الدينية والردّة

الحرية الإنسانية في الإسلام مسألة محورية، من وجهة نظر روحية، وذلك لعدم وجود هيئة كهنوتية تتدخل في العلاقة المباشرة بين الإنسان والله. فالإنسان يتمتع بفضاء داخلي لا يستطيع أحد اقتحامه. كل فرد يمارس على ذاته، وبمقاييسه الخاصة، سلطة اعتبارية مشابهة (*mutatis mutandis*) لتلك التي تُعطي للبابا سلطته على

[19]) نذكر من القدامى: الكاشاني، نفسه. ج 1 ، ص 199؛ والألوسي، نفسه. ج 2، ص 216؛ وأحمد بن عَجيبة، نفسه. ج 1، ص 343؛ ومن بين المعاصرين: رشيد رضا، تفسير المنار؛ والشيعي الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن؛ وفريد إسحاق، نفسه. ص 163

الكاثوليك. ولذلك وصف لويس ماسينيون الإسلام بأنه "ثيوقراطية تعادلية وعَلمانية".[20] فالمطلق (الله) يتجلى في الإنسان في كل الحالات: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[21]

تنفي عدد من الآيات أي إكراه في الدين، آيات نزلت على النبي (ص) وهو المعني بها: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾،[22] أو كذلك: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[23]

ولكن وجب أيضا هنا استدعاء الآية الشهيرة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾،[24] الذي كان أثرها ثوريا حقيقة في عصرها. كثيرة هي السيناريوهات التي

---

[20]) وقد ناقش لويس غارديه هذه الصيغة في: الشيخ بوعمران و لويس غارديه، بانوراما الفكر الإسلامي (*Panorama de la pensée islamique*). باريس، سندباد، 1984. ص 185

[21]) سورة الحديد؛ آية 4

[22]) سورة الكهف؛ آية 29

[23]) سورة يوتس؛ آية 99

[24]) سورة البقرة؛ آية 256

يقع استدعاؤها عند الحديث عن أسباب نزول هذه الآية؛ لنذكر هنا اثنان منها:

- قبل الإسلام، كان سكان يثرب (التي سيُطلَقُ عليها بعد ذلك اسم: المدينة) يستأمنون أبناءهم لدى القبائل اليهودية، لأن هذه الأخيرة كانت تملك كتابا مقدسًا. وعندما جاء الإسلام، حاولوا إكراه أبنائهم على اعتناق الدين الجديد. وقد اعترض الرسول (ص) على موقفهم، فنزلت الآية داعمة لموقفه.[25]
- كان لأحد أنصار النبي (ص) طفلان قد تنصّرا بحكم مخالطتهم لتجار مسيحيين من بلاد الشام. فذهب أبوهم، المسلم، إلى النبي (ص) طالبا منه دعوتهما للدخول في الإسلام. فنزلت الآية. وفي رواية أخرى اصطحب الرجل طفلاه إلى النبي فاختصموا أمامه؛ ثم نزلت الآية.[26]

---

[25]) أبو رشيد النيسابوري، أسباب النزول. بيروت، 1983. ص 60؛ عبد الفتاح القاضي، أسباب النزول. القاهرة، 2003. ص 44

[26]) أبو رشيد النيسابوري، نفسه. ص 60؛ عبد الفتاح القاضي، نفسه. ص 44-45

كثيرًا ما وقع الاستشهاد بآية ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على مر القرون، عندما يسقط المسلمون في غواية فرض دينهم على الآخرين. وكان الخليفة عمر بن الخطاب (تـ 644) نفسه يرددها عندما رفض خادمه المسيحي الدخول في الإسلام بعد أن كان دعاه لذلك؛ ثم لم يعد يضغط عليه في ذلك أبدا.[27] أما فيما يتعلق بالآيات التي أقرّت الحرية الدينية، فإن المفكر التونسي محمد الشرفي (تـ 2008) يقول: "أمام أقوال إلهية بهذا الوضوح، كنا ننتظر من علماء الإسلام بناء نظرية رائعة حول حرية المعتقد. لكن مع الأسف، لا شيء من ذلك قد تم. بل على العكس، فقد تركوا لنا سلسلة من القواعد التي تتدخل في حرية المعتقد، تجاه المسلمين وكذا تجاه أهل الكتاب وغيرهم".[28] ويضيف: "كان علينا أن نترقب الفاتيكان الثاني حتى يتخلص المسيحيون من المبدأ القائل أنْ (لا خلاص خارج الكنيسة). كان يمكن للمسلمين سبقهم إلى ذلك قبل أربعة عشر قرنا، عندما أمرهم

---

[27]) ابن كثير، التفسير. بيروت، 1981. ج 1 ص 232

[28]) Mohamed Charfi, *Islam et liberté. Le malentendu historique*, (الإسلام والحرية؛ سوء تفاهم تاريخي) Albin Michel, 1999, p. 73-74

كتابهم المقدس باعتبار كل المفكرين الأحرار، ومن باب أولى كل أتباع الديانات التوحيدية ‘‘في مأمن من الخوف’’ ".[29] وها هو الخليفة عمر بن الخطاب مرة أخرى يطلب من ابن أحد الأقباط بأن يقتص علنًا من ابن والي مصر المسلم، بعد أن شكاه اعتداء هذا الأخير عليه دون وجه حق، فصاح عمر في وجه الشاب المسلم: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".[30] لم يكن الشاب القبطي عبدا للمسلم، ولكن سلوك هذا الأخير اعتداء صارخ على الكرامة الإنسانية للقبطي.

كيف إذًا والحال تلك، يذهب بعض الفقهاء المسلمين المتأخرين إلى إقرار عقوبة الإعدام للمرتد، أي لمن بدّل دين الإسلام ؟ تبيّن دراسات قام بها علماء مسلمون معاصرون أن تلك العقوبة لا تستند لأصل، لا في القرآن ولا في سنّة النبي (ص). ويستنتج طه جابر العلواني بعد استشهاده بالآية 29 من سورة الكهف – ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن

[29]) نفسه. ص 74

[30]) نشأت جعفر، الحرية في الإسلام.. القاهرة، 2002. ص 22

رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ في دراسة له حول المسألة أنه: "من غير المعقول أن يؤكد القرآن حرية الاختيار للبشر في أكثر من مائتي آية، ثم يتخلى عن ذلك بإدانة من يمارس حقه ويسلط عليه أقوى العقوبات [أي الحكم بالقتل]".[31] ويذهب الدكتور العَجَمي في نفس الاتجاه، كما يمكن أن نذكر غيرهم كثير من المؤلفين الذين يقومون بقراءة تنويرية للمعطيات المقدسة في الإسلام: "لا وجود في النص القرآني لعقاب ضد الردة، وأحرى أن لا يوجد حكم بالقتل ضد المرتد. بل على العكس من ذلك، فإن تصورا قرآنيًا لمجتمع مثالي وواقعي يرتكز إلى ميثاق سلام اجتماعي، يجمع مختلف مكوناته".[32] فكيف طُبِقَ ذلك الميثاق في التاريخ.

---

31) Taha Jabir al-Alwani, *L'Apostasie en islam. Un réexamen critique du corpus musulman*, (الردة في الإسلام، إعادة قراءة نقدية في المدونة الإسلامية) Le Scribe Harmattan, IESE Bruxelles, 2014, p. 61

32) Dr Moreno Al Ajami, Que dit vraiment le Coran, Zénith, 2011, p. 77.

I. سياقات الاعتراف بالأديان الأخرى

1. عند النبي (ص)

صحيفة المدينة

فرضت التعددية الدينية في الجزيرة العربية القرن السابع نفسها على المسلمين، وذلك لوجود اليهود والنصارى بشكل خاص بينهم. وبعد أن اختار المدينة دار هجرته، كان على محمد (ص) أن يؤاخي بين المسلمين فيما بينهم، وبينهم وبين غير المسلمين وخاصة من اليهود. كان لا بد من إقامة المدينة – الدولة التي تحمل مشروع الإسلام. كان الهدف إقامة ثيوقراطية تعددية، الضامن فيها والحَكَمُ محمد. إن اعتراف الإسلام بالديانات الأخرى لا ينسجم مع الهيمنة التي سببها، على الأقل في الميدان السياسي. صحيح أننا نجد في نص صحيفة المدينة أن مصطلح أمّة يسطّر روابط جديدة من التضامن تتجاوز الانتماءات القبلية والدينية. وبحسب علي بن أبي طالب، صهر النبي (ص) والخليفة الرابع، فإن الصحيفة تمثل الوثيقة المكتوبة الوحيدة التي تركها النبي (ص)، بقطع النظر عن القرآن. ويجب أن نعتبرها نوعا من العقد

الاجتماعي، أكثر منها "دستورًا".[33] ومع ذلك فإن تلك الصحيفة اعتُبِرَتْ أحيانا بمثابة أول وثيقة في القانون الدولي في تاريخ البشرية.[34]

المخطوطة الأصلية مؤرخة بالسنة الأولى أو الثانية للهجرة، أي بعد زمن قصير من وصول النبي إلى يثرب / المدينة. على المستوى السياسي، لا يجعل النص من الأمة الجماعة الوحيدة للمؤمنين الجدد من المسلمين، بل اتّحاد يجمع يهود المنطقة[35] والقبائل العربية التي بقيت على وثنيتها وقتئذ. ما يسترعي انتباهنا هنا تلك الإجراءات المتعلقة باليهود في المنطقة. ففي الصحيفة نجد أن هؤلاء يُعتَبَرون جزءا من جماعة تعترف بالتعدد الديني. فالفصل 25 منها يؤكد أنه: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم". بل إن يهود المدينة سبق لهم الالتجاء إلى تحكيم محمد (ص)، وكان هذا الأخير

---

[33] كما يعرض إلى ذلك دو بريمار في كتابه:
Alfred-Louis de Prémare, *Les Fondations de l'islam. Entre écriture et histoire*, Seuil, 2002, p. 88-89.

[34]) Muhammad Hamidullah, *Le Prophète de l'Islam. Sa vie, son œuvre* (النبي محمد: حياته وأثره)
Club français du livre, 1959, p. 124.

[35] Alfred-Louis de Prémare ، نفسه. ص 97

يحكم بينهم طبقا لشرائعهم.[36] وقد نصت إحدى نقاط الصحيفة على مجال مقدس ليهود المدينة، ما ضمن لهم الحماية. وبشكل عام فقد وقع التأكيد على المساواة في الحقوق بين مختلف المعنيين بالصحيفة.[37] روّج النص لما يمكن أن نسميه اليوم بـ"التضامن المواطني"، بل إن البعض كان يرى فيه التشكل الأوّلي لما نطلق عليه في عصرنا بـ"التعايش" بين الأديان. بيد أنه لا بد من الإشارة إلى أن وظيفة هذا الميثاق، في سياق الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون الأوائل في مكة قبل هجرتهم إلى المدينة، صنع حلف المؤمنين الموحّدين في مواجهة مشركي مكة.

أما في حالة الحرب، فقد كانت الصحيفة واضحة: إما أن يحارب يهود المدينة إلى جانب المسلمين — وفي هذا الحالة وجب على المسلمين حماية اليهود تماما كما يحمون إخوتهم في الدين – ، أو أن يختاروا دفع الجزية مقابل حماية المسلمين لهم. ولكن اليهود قد أبدوا بعض التحفظ في قبول بنود الصحيفة، لأن عددا قليلا فقط من بينهم كانوا

---

[36]) محمد حميد الله، نفسه. ص 129

[37]) نفسه. ص 125

مستعدين لقبول إمكانية أن يرسل الله نبيا من غير اليهود.[38] فهل ذلك هو السبب الذي دفع بعدد من القبائل المحيطة بالمدينة إلى خيانة التحالف العسكري مع المسلمين أكثر من مرة ؟

وفي هذا السياق يتساءل بعضهم لماذا سمح الرسول (ص) بقتل ستمائة أسير يهودي سنة 5 / 627. كانت قبيلة بني قريضة اليهودية قد انقلبت على المسلمين في معركة الخندق، فعمد المسلمون إثر ذلك إلى محاصرتهم وتمكنوا من اقتحام قلعتهم. عُرِضَ عليهم الدخول في الإسلام فرفضوا، وحتى يكون الحُكم على اليهود خفيفا أمر الرسول (ص) أحد أكبر أصدقاء القبيلة، وهو من قبيلة الأوْس العربية المدينية سَعْد بن مُعاذ، بإصداره؛ فقام هذا الأخير بإعدام رجال القبيلة بتهمة الخيانة العظمى، وصدّق الرسول على حُكمه. وفي الحقيقة، فإن الحُكم الذي أصدره سعد ينخرط تماما في منطوق الشرائع اليهودية. فسِفْر التثنية يقرر بخصوص حصار المدن (20 : 12) " **وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف؛ وأما النساء**

[38]) Martin Lings, *Le Prophète Muhammad. Sa vie d'après les sources les plus anciennes*, Paris, 1986, p. 209- 210.

والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كلّ غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك".[39] كان عقاب الخيانة الموصوفة دائما هو الموت في كل شرائع الحروب. أما الرحمة التي كان النبي (ص) يعتمدها إلى ذلك الحين كانت دائما في غير صالحه: فالحفاظ على أرواح الأسرى في معركة بدر على سبيل المثال كان يمكن أن تكون عواقبه وخيمة على المسلمين في المعارك اللاحقة. في هذه المرة كانت الرسالة واضحة، ولم يعرف النبي في حياته بعدها مثيلا لتلك الحادثة.

زيارة وفد نصارى نجران إلى المدينة

تمثل تلك الحادثة، بلا منازعة، أول حوار إسلامي – مسيحي، حفظ الوحي القرآني حيثياته. ففي شهر جانفي 631، كان لقدوم وفد مسيحي إلى المدينة وقع كبير. كان الوفد يضمّ من ستين إلى سبعين شخصا، ومن بينهم سبعة كهنة إضافة إلى أسقف نجران.[40] شق هؤلاء طريقهم بين المسلمين، وتبادلوا معهم التحايا، قبل أن يستقبلهم الرسول

[39]) نفسه. ص 381 – 384

[40]) محمد حميد الله، نفسه. ص 414

بعد صلاة الظهر، ويسمح لهم بأداء صلواتهم داخل مسجده مستقبلين بيت المقدس. وقد قصّ بعض الشهود من المسلمين كيف أن أولئك المؤمنين استقبلوا المشرق لأداء طقوسهم، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن تحريم إقامة أماكن عبادة لغير المسلمين في المملكة العربية السعودية اليوم لا أساس له لا في القرآن ولا في السنّة النبوية. ومن الغد، انطلق الجدل حول طبيعة المسيح، وتدخل الوحي في ذلك النقاش: نزلت الآيات 33 إلى 63 من سورة آل عمران بهذه المناسبة. تضمّ هذه السورة أهم العناصر اللاهوتية الإسلامية المتعلقة بالمسيح. ففيها نجد التأكيد على نفي بنوّة المسيح لله تعالى: يذهب بعض علماء الإسلام إلى أن انتفاء وجود الأب في حالة المسيح، أرضيا كان أم سماويا، ليس غريبا في ذاته، فآدم نفسه لم يكن له أب ولا أمٌّ ؛ وبالتالي فإن خلقه أعجب من خلق عيسى (سورة آل عمران: آية 59).

وبحسب المصادر التاريخية، فإن النبي (ص) ركز حواره مع كاهنين مسيحيين. وعندما أراد وضع حد للجدل بأمر من الوحي (آل عمران: 61)، عرَضَ على النصارى القيام بالمُباهَلَة، على عادة

تلك الأزمان. كان على المقدَّم في كل فريق أن يأتي في وقت معلوم بأغلى مَنْ معه لديه، وأن يدعو الله الحَكَم بأن يُنزل غضبه على الكاذب من بينهما. كان المفترض أن تكون المباهلة علنية، إلا أن الوفد المسيحي اختار صبيحة يوم 15 جانفي 621 التخلّي عنها، طالبين تعويضها باتفاقية استسلام نحتفظ إلى اليوم بنصها. وفي مقابل استعدادهم لتوفير الثياب والمعدات العسكرية للمسلمين في غزواتهم، وعدهم الرسول (ص) بتأمين الأشخاص، وحماية الممتلكات، وحرية العبادة والدين، واحترام الأساقفة والكهنة والرهبان، وعدم المساس بمؤسساتهم الدينية. كما أسقط عنهم الجزية والخدمة العسكرية وتوفير المؤن. "وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش من سأل منهم حقا، فبينهم النصف، غير ظالمين ولا مظلومين". وقد مثّلت هذه المعاهدة مثالا لما جاء بعدها من استسلام أقوام، وحفظت أرواح شعوب نصرانية خضعت للدولة الإسلامية لقرون عديدة، مقابل أداء الجزية.[41]

[41]) نجد نص المعاهدة كاملا في: محمد حميد الله، نفسه. ص

وفي أثناء ذلك اللقاء، نزلت الآية 64 من سورة آل عمران، التي دعت إلى التقارب بين المؤمنين الموحّدين، وفتحت أفقا حقيقيا لجماعة المؤمنين: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

2. واجب حماية المؤمنين من غير المسلمين: الذِمّة

باعتباره خاتمة الديانات، كان على الإسلام حماية مختلف أشكال الإيمان التي سبقته. وبذلك فقد كان أول ترخيص للمسلمين باستعمال السلاح للدفاع عن أنفسهم – فقط ضد مشركي مكة، وليس ضد مؤمنين موحدين آخرين — مقترنا بالتأكيد على تحييد أماكن العبادة عامةً: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ♣ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ[42] وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم

---

415 — 416؛ وكذلك في

Louis Gardet, *La Cité musulmane*, Vrin, 1961, p. 344-345.

[42]) يذهب المفسرون إلى أن سكان مكة كانوا يطاردون

بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .[43] وقد جعل هذا المقطع من القرآن الدفاع عن الحرية الدينية العلّة الكبرى التي يمكن اللجوء إلى حمل السلاح بسببها؛ ويتجاوز مداها كثيرا الحالة الإسلامية.

ومن الطبيعي أن يكون "تعاطف" إله المسلمين موجّها قبل كل شيء إلى أهل الكتاب. فلما فتك مشركوا بلاد فارس بمسيحيي بيزنطة، تألم المسلمون لذلك. فنزلت الآية : ﴿الم ♣ غُلِبَتِ الرُّومُ ♣ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ♣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .[44] وقد تبيّن إن النبوءة القرآنية قد صحّت.

ولا يمكن إثارة وضعية المؤمنين من غير المسلمين في دار الإسلام دون الكلام عن الذِمّة، خاصة وأن كثيرا من الهراء قد حُبِّر في هذا الشأن. يشير

المسلمين الجدد الذين استقروا بالمدينة، ولكن النبي (ص) كان يترقب الأمر الإلهي لاستعمال القوة ضدهم.

[43]) سورة الحج؛ آية 39 – 40

[44]) سورة الروم؛ آية 1 – 4

المصطلح [ذِمّة] إلى نوع من العقود يمكن تجديده إلى ما لا نهاية، ومن خلاله توفر جماعة المسلمين كرم الضيافة والحماية لأتباع الديانات الأخرى التي تمتلك وحيا، بشرط احترام هؤلاء لهيمنة الإسلام. وقد وقع تطبيق ذلك العقد، وهو نتاج المعاهدة التي أجراها النبي (ص) مع نصارى نجران، ابتداء من سنة 638 مع الخليفة عمر بن الخطاب على مسيحيي بيت المقدس.[45] وفي مقابل وضعية "الحماية" التي كان الذمّيون يتمتعون بها (من قبل الدولة الإسلامية في حالة الاعتداء الخارجي مثلا)، كانوا أحرارا في عباداتهم ولا يُلزَمون بالخدمة العسكرية، ولكنهم كانوا ملزمين بدفع الجزية. ولا بد من الإشارة هنا أن الزكاة التي كان يُخرجها المسلمون، وهي من أركان الإسلام، كان مقدارها أرفع بكثير من معلوم الجزية. أما القاعدة القانونية لذلك فهي : "للدفاع عن الأمّة، يدفع المسلمون من دمائهم، وتدفع الأقليات الدينية ضريبة مالية". يحتوي عقد الذمّة، بحسب الأماكن والأزمان، على إجراءات تبدو لنا اليوم مُهينة لغير المسلمين:

45) في حين يؤكد بعضهم أن "العُهدة العُمرية" لم تتبلور إلا في القرن التاسع

علامات مميزة في اللباس، علاقات مقننة مع المسلمين (غير مسموح للمسلمة – على سبيل المثال – الزواج من ذِمّي)، منع إعادة بناء أماكن العبادة عند انهيارها ...الخ) وعلاوة على ذلك فإن تلك الإجراءات التمييزية لم تُطبَّق إلا في حالات قليلة، كما تدل عليه الدعوات المتقطعة التي يصدرها السلاطين أو العلماء بضرورة تطبيقها.[46] تقلد المسيحيون واليهود مناصب عليا، وخاصة في الإدارة بالنسبة للأولين (وصولا إلى منصب الوزير الأكبر)، وفي الشؤون المالية للدولة الإسلامية بالنسبة للأخيرين (وصولا إلى منصب كبير بيت المال في الدولة). أما عن السلالات الحاكمة التي عرف فيها أهل الكتاب أفضل الأوضاع المريحة فهي الفاطميون في مصر (ق 11 و 12) والعثمانيون. يقول عبد الوهاب المؤدب: " عرف اليهود فترة ازدهار صنائعهم، وتمكنوا من التطور داخل مؤسسات الدولة وممارسة أعلى الوظائف السياسية والعسكرية، والمشاركة في تألق الآداب والعلوم والفنون، مع الدفاع عن الخصوصية التي

46) Claude Cahen, article « Dhimma », in *Encyclopédie de l'Islam 2*, tome II , p. 235.

تميزهم والإشادة بذلك".[47] وفي كل الحالات، فلا يمكننا إطلاق أحكام، إيجابية كانت أم سلبية، حول الوضعية المخصصة للذمّي لأنها تصدر عن "مفاهيم وُلِدتْ في قرن الأنوار، ولا يمكن بالتالي تطبيقها على مجتمع ما قبل الحداثة".[48]

لنتوقف قليلا عند وضعية من كانوا يُعتَبَرون مشركين أو وثنيين، أي بعيدا عن اليهود والنصارى والصابئة والزرادشت. فقد طُرِح السؤال أيضا حول شعوب شبه القارة الهندية وشعوب جنوب شرقي آسيا. نظريا، بعض المذاهب الفقهية فقط — الأحناف بشكل خاص، الذين كانوا في علاقة مع هؤلاء — اعتبرتهم من أهل الذمّة. ولكن "غالبا ما منح المسلمون أتباع الطوائف المستسلمة لهم وضعية فعلية شبيهة بالوضع القانوني لأهل الذمّة".[49] كان من حق هؤلاء الاعتراف بعقائدهم وحماية الدولة الإسلامية لهم، في مقابل دفع الجزية. ولتقريب الصورة عمّا يمثله مثل ذلك الاعتراف في

---

[47]) Abdelwahab Meddeb, *Face à l'islam,* Textuel, 2003, p. 127.

[48]) Françoise Michaux, article « Dhimma », in Mohammad Ali Amir-Moezzi (dir.), Dictionnaire du Coran, Robert Laffont, coll. « Bouquins », 2007, p. 216.

[49]) Claude Cahen, art « Dhimma », *op. cit.*, p. 234

تلك الأزمان المتقدمة (القرن الثامن وما بعده)، لا بد من تذكير الجدل الذي جمع في سنة 1550 و 1551 القس الدومينيكي بارتوليمي دولاس كازاس (*Bartolomé de Las Casas*) والمتأله خوان غينس دو سيبولفيدا (*Juan Ginés de Sepúlveda*) في مناظرة بلد الوليد المشهورة في أسبانيا. كان الأول يدافع عن النظرية القائلة إن هنود أمريكا من مخلوقات الله، يملكون روحا كباقي البشر؛ في حين أن الثاني كان يعتبر الهنود من غير نسل آدم وحواء. وفي كل الحالات فإن هذا وذاك يتفقان حول واجب هداية تلك الشعوب، أي دفعها لاعتناق المسيحية.

3. مسألة "التسامح" مع غير المسلمين في الحضارة الإسلامية الكلاسيكية

في سنة 1689، وفي كتابه المعنون "رسالة حول التسامح"، استشهد الفيلسوف الانجليزي لوك (تـ 1704) بعقد الذمّة "عندما تحدث عن المدينة التي تحترم الأيام المقدسة لكل فئة، والتي يستطيع فيها الجميع إقامة شعائرهم الدينية بسلام، يوم الجمعة بالنسبة للمسلمين، والسبت لليهود،

والأحد للمسيحيين".[50] وفولتير نفسه كتب في مستهل حديثه عن "التسامح" في كتابه: "القاموس الفلسفي": "التركي العظيم (ويقصد به الخليفة العثماني) يحكم مختلف العقائد المتعددة التي تسكن أراضيه بكل وئام؛ لكل منها حقوقه وواجباته".[51]

ويمكن – بيُسرٍ – أن يبدو حرص الدولة الإسلامية على حماية غير المسلمين عملا هَيْمَنِيًا يقوم به الإسلام، ولكن التعاليم الصادرة عن ذلك العمل شكّلت قطعًا الأسس التي انْبَنَتْ عليها قيمة التسامح التي ميّزت الإسلام الكلاسيكي، وحددت قواعده القانونية الدقيقة، مثل: "لهم [غير المسلمين] ما لنا، وعليهم ما علينا".[52]

وقد عبّر هذا العقل المنفتح عن نفسه بوضوح في الأوساط الثقافية والسياسية في أوج العصر العباسي (خصوصا في القرن التاسع)، وفي بغداد تحديدا. فقد كانت تنعقد المناظرات، في دوائر ضيقة أو في مناسبات عامة، بين مختصين من مختلف مدارس الفكر اللاهوتي. وفي تلك

---

[50]) مذكور في عبد الوهاب المؤدب، نفسه. ص 125

[51]) نفسه.

[52]) قاعدة ذكّر بها محمد الغزالي، نفسه. ص 87

الصالونات كنا نرى مسلمين يجادلون آخرين من مذاهب مختلفة، ومسلمين يناظرون ممثلين عن ديانات أخرى، قد تكون أحيانا من غير التوحيدية (كالمانوية). كما رأينا أيضا رجالات الحُكم ينظّمون تلك الحلقات، ويشاركون فيها أحيانا. ولا نتصور في أيامنا، إمكانية أن يتحمس قادة العالم الإسلامي لمثل تلك الفورة الفكرية.

وعلى خطى الفلاسفة الأوربيين في القرن 18، شهِد عدد من المستشرقين بذلك الوعي بالغيرية الدينية. وقد كتب عالم الإسلاميات المجري إيغناس غولدزيهر (ت. 1921)، وهو من المعروفين بنقدهم الشديد والعلني للإسلام، ما يلي: "لا يمكن أن ننكر أن الإجراءات الأولى التي فرضت نفسها على المسلمين الفاتحين تجاه المنهزمين أتباع الديانات المخالفة كانت موصومة، في تلك المرحلة الأولى من تطور القوانين الإسلامية، بروح من التسامح [كذا]. وهو ما يقترب إلى حد اليوم، في العادات السياسية للدول الإسلامية، من التسامح الديني – ظهور القانون العام في الإسلام، الذي غالبا ما نلاحظ استحضاره في مؤلفات الرحّالة في القرن 18 – الذي يصدر عن مبدأ، تشكَّلَ منذ

النصف الأول من القرن السابع، وهو حرية ممارسة الموحدين الآخرين [من غير المسلمين] لشعائرهم الدينية [...] وتوفر لنا الأخبار التي بحوزتنا عن مراحل الإسلام الأولى عديد الأمثلة حول التسامح الديني الذي كان يبديه الخلفاء الأُوَل تجاه أتباع الديانات القديمة".[53] ثم استشهد بإحدى الروايات لحديث نبوي تعرضنا له سابقا: " ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة".[54]

وكتب مستشرق آخر، والتر بيوركمان (*Walther Björkman*)، في "موسوعة الإسلام" المعروفة بجدّيتها الكبيرة، ما يلي: "إلى حدود عصر الحروب الصليبية، ما سيطر في العالم الإسلامي تجاه أهل الكتاب، هو تسامح لم يكن مقبولا حتى

---

[53]) Ignaz Goldziher, *Le Dogme et la Loi dans l'Islam*, L'Éclat & Geuthner, 2005 (rééd. de 1920), p. 29

[54]) نفسه. ص 30؛ أنظر أيضا

Antoine Fattal, *Le Statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1958 ; Bernard Lewis, *Le Retour de l'islam*, Gallimard, 1985, p. 27, et *Juifs en terre d'islam*, Calmann-Lévy, 1986, p. 71.

في المسيحية المعاصرة. وبذلك وجدنا على سبيل المثال مسيحيين يعتلون أعلى المراتب الرسمية".[55]

4. في محكّ التاريخ

"ضع ثقتك في الرجل الصالح وإن لم يكن على دينك؛
واناً بنفسك عن الفاجر وإن كان على دينك"
ابن حزم (عالم أندلسي من القرن 11)

مع مرور الوقت، ساهمت الرهانات السياسية والمصالح الاقتصادية، وأيضا الحروب الصليبية، في تقويض المُثُل الإسلامية في مجال الانفتاح على الأديان الأخرى والاعتراف بها. فقد قاد مسار التحجّر البطيء للثقافة الإسلامية الشعوب المسلمة إلى انكفاء أكثر وضوحا على الذات. وابتداء من القرن الثامن عشر، زادت الإمبريالية الأوربية، ثم الاستعمار، من حدّة الإحباط والاستياء لدى تلك المجتمعات. ففي حين كانت الأجيال الأولى للمسلمين متعطّشة لهضم ما يأتيها من الحضارات الأخرى، أصبح رفض "الآخر" أحيانا في الأزمان اللاحقة عوارض لإحساس

[55]) Walther Björkman, in *Encyclopédie de l'Islam 2*, tome IV, p. 426.

بالضيق تعيشه تلك المجتمعات. عندها ظهرت حالات الخلط الكبير التي تُعرّف المؤمنين من غير المسلمين، مثلا، بأنهم كُفّار، في حين أن هذا المصطلح كان يُطلَقُ على كُفّار مكة المعادين للنبي (ص). وعلى أي حال فقد أفرط المسلمون في إساءة استعمال هذا المصطلح بهدف تشويه عقائد هذه الفرقة أو تلك من فرق المسلمين. وسواء كنا مسلمين أم غير ذلك، فلا شك أننا دائما ما نعمد تقريبا إلى "دفْن" الحقيقة أو الإيمان، ودائما ما كنا "جاحدين" للطف الإلهي بشكل من الأشكال: تلك هي المعاني الأساسية للجذر اللغوي ك ف ر.[56]

وفي عصر كانت فيه كل جماعة ثقافية ودينية منكفئة في الغالب على ذاتها وتمارس الانعزالية تجاه غيرها من الجماعات، قام الإسلام الناشئ — الدين والحضارة — بأكثر من التسامح مع الدينَيْن الكِتابِيَيْن المتواجدين في الشرق الأوسط؛ لقد اعترف بهما، وإن تمّ ذلك في سياقات خلافية.

---

[56]) أنظر سورة الحديد؛ آية 20، حيث يمكننا فهم مصطلح "كفّار" على أنه يعني "الفلاحين"، أو بطريقة مجازية، "أولئك الذين دفنوا بذرة الإيمان"

كان ذلك الانفتاح الجوهري على الآخر يسمو على كل مخاطر سياسة بعض الحكّام المسلمين، وعلى التجاوزات السلوكية التي رأيناها لاحقا. وإذا لم يكن لصحيفة المدينة إلا التأثير الإيجابي العابر على العلاقات اليهودية–الإسلامية، فإنها أسست على الأقل لاحترام الأقليات الدينية في أرض الإسلام وحمايتها.

ومثلما رأينا فقد أظهرت الحداثة، سليلة الأنوار، الوضعية القانونية للذمّي باعتبارها مهينة ومُخزية، ولكن لا بد من التذكير بطرق التعامل التي انتهجتها أوربا تجاه اليهود طيلة قرون عديدة، والقائمة على النبذ والتنكيل. وليس من قبيل الصدفة أن يقع طرد اليهود مع المسلمين من الأندلس سنة 1492 إبّان حروب الاسترداد *Reconquista* وأن يلجأ هؤلاء اليهود بكثافة إلى السلطان العثماني في إسطنبول. يقول محمد الشرفي: "عرف اليهود في البلاد الإسلامية وعلى مدار القرون الوسطى نظاما أكثر تسامحا وحفاوة من أي مكان آخر في العالم. ويمكننا الاستشهاد في هذا المجال بما كتبه أبا يبان *Abba Eban*، وهو السياسي الإسرائيلي المعروف الذي لا يمكن الشك

في كرهه للإسلام وللعرب، في كتابه "تاريخ اليهود". فهو يعترف بأن اليهود في الشتات لم يعرفوا فترات ازدهار وتحقيق شخصيتهم إلا مرتين: اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية، وسابقا في الأندلس المسلمة".[57] وكما قال لي أحد الأصدقاء من اليهود، فإن الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني يمثل قمّة النفي والانقلاب الدراماتيكي لذلك التفاهم الضارب في القدم.

[57]) Mohamed Charfi, *op. cit.*, p. 75

II. من الجهاد إلى "الجهادية"

عند عودته من إحدى غزواته، قال النبي (ص) لصحابته: " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"؛ قالوا "وما الجهاد الأكبر؟" قال: "جهاد القلب"، وفي رواية أخرى "جهاد العبد لهواه". وتذهب بعض الأحاديث النبوية الأخرى هذا المنحى؛ يقول (ص): "المجاهد في سبيل الله من جاهد نفسه" أو في رواية أخرى: "أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه". وفي الحقيقة، فإن معاني الجذر العربي لكلمة ج ه د تحوم حول: "ينطبق على"،"يجتهد في العمل"، "يقوم بمجهود"، "يسعى جاهدا". ويحيل نفس الجذر على مصطلح اجتهاد، أو "الجُهد الفكري والقانوني لفهم إرادة الله في الوحي"، ومصطلح مُجاهدة، أو "الانضباط الزهدي"، "مجاهدة الذات". عديدة هي الآيات القرآنية التي تُفصّل في ذلك الجُهد المبدئي، وهو روحي قبل كل شيء: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾،[58] وكذلك: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا

[58]) سورة العنكبوت؛ آية 69

وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ♣ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾.[59]

لا يعني مصطلح "جهاد" بأي حال من الأحوال إذًا الحرب أو المعركة الجسدية. هو يهتم بحشد طاقة الإنسان، فردًا كان أم جماعة، وتسييرها نحو الله، في جميع مناحي الحياة. وقد عدّه بعض علماء الإسلام سادس "أركان" الإسلام، لأنه يشتمل على الأركان الخمسة الأخرى: فـ"الشهادة"، والصلوات اليومية الخمسة، والصيام، والزكاة، والحج تحتاج جميعها إلى بذل الجُهد. يجب أن نترجم مصطلح جهاد إذًا بـ"الجُهد المقدس"، وليس بـ"الحرب المقدسة".

حالة الحرب ليست إلا واحدا من أبعاد ذلك "الجُهد"؛ وفي الواقع، فهو ليس أكثر من ظاهرة عارضة. ولأنه جزء أصيل في الطبيعة البشرية، فقد أُخِذَ بالاعتبار في الاقتصاد العام للوحي، تماما كما هو الشأن في ديانات أخرى: فإذا اقتصرنا على قراءة حرفية للإنجيل، لقلنا إن الله يسوّغ لبعض أشكال العداوة، وأن **البهاغافاد غيتا** -*Bhagavad Gîta*، أحد الكتب المقدسة عند الهندوس، تحتوي

[59]) سورة الحج؛ آية 77 – 78

على سيناريو معركة بين جماعات متنافسة في الهند القديمة.

وبحسب نظرية فقهاء الإسلام، فإن "الجهاد الأصغر" جهاد أفقي، عسكري، ولا يتعلق إلا **بالقتال الدفاعي**، أي عندما يهاجَمُ الإسلام في عقر داره. وبالفعل، فإن "الآية الأولى التي أمرت المسلمين بالقتال جاءت متأخرة عن زمن إقامة الحاضرة – الدولة في المدينة، أي بعد أكثر من 14 سنة من بداية الدعوة المحمدية. كان الأمر متعلقا بالتصدي لهجوم مسلح مؤكد [هجوم مُشركي مكة]، وأوردت الآية بشكل واضح أن القتال، وهي المرة الأولى التي يُقرَّرُ فيها، يخضع لشروط: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾".[60] ثم تتالت الآيات بهذا الشأن مثل: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. [61] لقد خَرَقَ مشركوا مكة السلم. ويجب استعادة حالة السلام في أقرب الآجال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا

[60]) Dr Moreno Al Ajami, *op. cit.*, p. 114. والآية المعنية هنا هي الآية 39 من سورة الحج

[61]) سورة البقرة؛ آية 190

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[62]

ذاك ما ذكّر به 120 عالما مسلما من القارات الخمسة، في بيان مشترك أصدروه يوم 27 سبتمبر 2014، على إثر الأعمال التي قامت بها ما يُسَمّى بـ"الدولة الإسلامية". ويؤكدون في البيان أن "الجهاد في الإسلام هي حرب دفاعية. وهو مرفوض بدون هدف نبيل، وبدون حق موضوعي، وبدون قواعد سلوك محددة". وذكّر أولئك العلماء أيضا بالدليل التالي: "يحرُمُ في الإسلام الإساءة إلى المسيحيين أو أهل الكتاب أو اضطهادهم [...] كما يُحرّمُ الإسلام إكراههم على تغيير دينهم".[63]

ماذا إذا عن "آية السيف" المشهورة (سورة التوبة؛ آية 5) التي يرجع إليها "الجهاديون" كثيرا:﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؟ وكما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من الآيات القرآنية، فإننا لا يمكن أن نقرأ وأن نفهم هذه الآية دون الرجوع إلى أسباب النزول. قام

---

[62]) سورة الأنفال؛ آية 61

[63]) « 120 savants musulmans s'insurgent contre "l'État islamique", le Coran à l'appui », sur le site Oumma.com.

مشركوا مكة بنقض الهدنة من طرف واحد، ومهاجمة جماعة من المسلمين. ليس المعنى الذي تعطيه هذه الآية إذًا ترخيص عام بالعدوان، بل جواب مخصوص عن نقض لمعاهدة. لا نزال في سياق الجهاد الدفاعي. ينسى الجهاديون الإشارة إلى الآية التالية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾. وتقدم لنا الآية 13 من نفس السورة وبكل وضوح، السياق الذي تنزّلت فيه ما يُعرَفُ "بآية السيف": ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

كتب المفكر الكبير والشاعر الألماني غوتة رسالة إلى ابنه مؤرخة بسنة 1814 يقول له فيها: "إذا كان الإسلام يعني الخضوع لله، فإننا جميعا نحيا ونموت في الإسلام".[64] كما يُعزى له القول التالي: "إذا كان هذا هو الإسلام، فنحن جميعا مسلمون". فما الذي جعل إدراك الإسلام يعرف هذا الانقلاب في المعاني في العقود الأخيرة ؟

[64]) توجد هذه الرسالة أيضا في ديوان الشاعر: *West-Östlicher Divan*

ويظهر انقلاب المعنى ذاك بوضوح في الانزياحات المعاصرة لمصطلح جهاد، كما رأينا.

إن التيارات الجهادية المعاصرة تمثل في الحقيقة نفيًا مميّزًا للجهاد الفعلي، وللقيمة العليا للإسلام: الرحمة؛ بالرغم من أن إله الإسلام يقدّم نفسه في مستهل كل سورة قرآنية باعتباره "الرحمان الرحمين"، وبالرغم من أن الآية 107 من سورة الأنبياء تخاطب الرسول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. التيارات الجهادية الحالية هي الصورة المشوّهة عن الوهابية السعودية، التي دعمها الغربيون – وعلى رأسهم الأمريكيون – بشكل غير أخلاقي. لا شك أن هذا الدمّل قد وُلِد، في بلاد الإسلام، نتيجة لقلق حضاري ما بعد استعماري، ولكن مع العولمة والانتشار الإعلامي الواسع، بدأ يعرض نفسه كعقيدة عدمية في لبوس ديني.

قيم الإسلام

قيم الإسلام 1
التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية
إيريك جوفروا
جانفي 2015

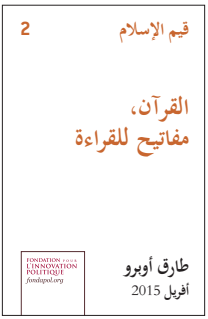
قيم الإسلام 2
القرآن، مفاتيح للقراءة
طارق أوبرو
أفريل 2015

قيم الإسلام 3
الإنسانية والإنسية في الإسلام
أحمد بويردان
أفريل 2015

قيم الإسلام 4
التصوف: روحانية ومواطنة
باريزا الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 5
الإسلام والميثاق الاجتماعي
فيليب موليني
أوت 2015

قيم الإسلام 6
الإسلام وقيم الجمهورية
سعد الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 7
التربية في الإسلام
مصطفى الشريف
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 8
النساء والإسلام، رؤية إصلاحية
أسماء المرابط
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 9
الإسلام والديمقراطية: الأسس
أحمد الريسوني
نوفمبر 2015

قيم الإسلام 10
الإسلام والديمقراطية في مواجهة الحداثة
محمد بدّي ابنو
ديسمبر 2015

قيم الإسلام 11
الشيعة والسنّة: سلام مستحيل ؟
ماتيو تيرّيه
جانفي 2016

Fondation pour l'innovation politique

مؤسسة التجديد السياسي

ثنك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي www.fondapol.org على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصّتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجَـمَّعَة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحراك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي)" وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0.

مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

data.fondapol

Le site internet

www.fondapol.org

Les médias

fondapol.tv

trop libre

Une voix libérale, progressiste et européenne

11, rue de Grenelle
75007 Paris – France
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00
contact@fondapol.org